الخـــريف

قصة مصرية بقلم الأستاذ سيد قطب

"القصة أوسع مجال لمعالجة المسائل الاجتماعية وبخاصة من وجهتها النفسية . وهذه القصة تعالج مشكلة نفسية اجتماعية خاصة ، ولعل هذه المشكلة مرت بعوص الكثيرين من الشبان بعد أن دلفوا الى الكهولة ، محرومين من هدوء العش وأنس الأليف .

ولعل الكثيرين من الشبان الذين لا تزال مطامح الشباب وأمجاد الخيال تغريهم بالوحدة وتفريهم من القيود أو ما يسمونه بالقيود ، لعلهم يرون فى هذه القصة صورة من المصير الذى ينتظر الحائر بين الآفتين

وهذه القصة لم تكتب من أجل هـذا الغرض ، ولم يرم صاحبها الى « مغزى » خاص أكثر من تصوير حالة نفسية ، ثم صادف أنها تمس مشكلة اجتماعية"

المحرر

حينما عاد إلى مسكنه المنعزل حوالى منتصف الليل ، كان صوت سمير ، الطفل الصغير ، لا يزال يرن فى أذنه : " بابا عبده ، مروّح ليه ؟ ".

وتثاقلت خطاه وهو يقطع ممر الحديقـة الصغيرة ، ويصعد الدرج إلى باب المسكن فى شبه ذهول ، ومع أنه يعيش فى هـذه الدار منذ عشرة أعوام ، ويسكن إلى عزلتها ويستأنس بها ، إلا أنه أحس فى هذه الليلة بوحشة لا عهد له بها ، وكأنما يأوى إلى كهف مهجور أو جب مسحور .

وكانت الأوراق الجافة تتساقط من حوله ، فتجرجرها الرياح ، وكأنما هى تصفق منذرة بالرحيل . .

إنه الخريف . . . .

وحينما أدار المفتاح تمنى أن يفتح الباب فيجد " زنوبه " الأرمل العجوز التى تقوم له بشؤون النهار ، ثم تأوى إلى دارها وأبنائها بالليل . . . تمنى أن يجدها فى هذه الليلة ، وهو يعلم أن تلك الأمنية أمر مستحيل . . . بل تمنى أن تكون قد تركت إحدى النوافذ مفتوحة فقفزت منها قطة الجيران التى كانت تفد إليه فى بعض الليالى فيؤذيه مواؤها وعبثها بأدوات المطبخ ، ويقطع عليه سلسلة تفكيره فى هدوئه المحبوب .

وأحس بخيبة أمل وهو ينير مصباح الردهة فلا يجد إلا نفسه ، كأنما صحا من سكرة عميقة ، فاذا السامر منفض من حوله ، وإذا هو مفرد فى هذا الوجود .

وكانت خطواته كلما آوى إلى منزله أو معبده — كما كان يحلو له أن يدعوه — تقوده إلى حجرة المكتبة ، سواء أكان بالليل أم بالنهار ، فيلقى على كتبه الحبيبة — ومنها مؤلفاته نظرة تحية عاطفة ، ثم يذهب أو يبقى فى صومعته ، يناجى الأرواح التى تعمرها . أرواح المؤلفين التى كان يحسها مرفرفة فى جو الحجرة تستقبله وتحييه . وأرواح مؤلفاته التى يدللها ويحنو عليها بروح الأب المشفق الودود .

ولكنه فى هذه الليلة إختلف عادته للمرة الأولى ، لقد خيل إليه أن هذه الأرواح المرفرفة اللطيفة قد استحالت أشباحا كئيبة مخيفة ، وسرى هذا الشعور فى كيانه فأحس برعدة تتشى فى أوصاله ، وأسرع إلى حجرة نومه فألقى بملابسه فى أرض الحجرة وألقى بنفسه فى السرير دون أن يجرؤ على إشعال النور .

وكما يصنع الأطفال حين يخشون الأشباح راح يدفن نفسه فى الفراش ويجذب الغطاء على رأسه ويسد أذنيه محاولا أن يغطى على الصوت الهامس الرهيب ، لا صوت الأشباح ولكن صوت سمير الصغير : "بابا عبده ، مروح ليه ؟" .

وبعد فترة كأنها جيل ... أدركته رحمة الله ، فنام .

* * *

نشأ عبد المنعم فى أسرة ريفية عريقة ... وحينما كانت نفسه تتضع بالشباب وتتفتح للنور كان القدر يطمس على مجد الأسرة ويعبث بمخلفاتها حتى الحطام . وهو ما زال تلميذا فى أولى خطوات التعليم .

ولم يشأ الفتى الصغير أن يخضع للمصير المتطور ، فكافح مستعزا بالمجد القديم ، مستعينا بعزمة صادقة وآمال عريضة . جاهد حتى أتم دراسته العالية ، وحتى وصل بأخيه الصغير إلى مرحلة التعليم النهائية ، وحتى أنقذ بقايا الأسرة من المصير المخيف .

والأقدار التى حرمته ما متعت به أسلافه من نعيم ، عوضته من هذا المتاع موهبة أدبية قام على أساسها جهاده ، ودرجت فيها خطواته . وكان يلمح وراء كل خطوة بريقا لامعا من كوكب بعيد ... يتراءى هنالك وراء الأفق . إنه يدعوه ويبارك خطواته ، وينير له الطريق .

وحينما أتم رسالته لماضيه وأدى واجبه لأسرته ، شعر بالراحة وأحس الاغتباط وتملكته نشوة النصر ... النصر الحاسم على الزمن والحوادث والآلام والخصوم .

وكان بريق المجد يتراءى له ويدعوه ... هنالك خلف الأفق البعيد ، فلم يستطع مقاومة النداء المغرى واجتذبته الأضواء فسار على الدرب يهتف للنور ، ويصفق للأمل ، وتغمره النشوة لإحساس أنه قوى . قوى ملء أوصاله ولا حاجة به الى رفيق أو معين .

وفى الحين بعد الحين كان يزور أخاه الذى يسكن فى نفس الضاحية ، والذى لم يعد راهبا فى معبد بل رفيقا فى عش !

وكان عبد المنعم يعد شقيقه الصغير امتدادا له ، و نبتة من غرس يده ، فكان يستروح للقياه فى عشه الجميل ، ويأوى إليه و إلى زوجه الصغيرة الرشيقة كلما أحس بشىء من التعب بعد مجهود شاق ومرحلة طويلة فى طريق المجد المحبوب ، ثم يعاود التصعيد والتصويب.

ولكن منذ أن جاء سمير إلى هـذا العالم تلاحقت زياراته حتى كادت تصبح يومية وهو يرقب نموه بشعور غامض غريب . وفى كل مرة كان يحمل إلى الطفل ما يدخل السرور إلى نفسه الصغيرة البريئة ، وكان سمير يدعوه كما لقنته أمه : " بابا عبده..." ويهتف باسمه هذا كلما رآه مقبلا من بعيد ، وفى يده الحلوى تارة واللعب تارة ...

* * *

أخذت خطوات عبد المنعم فى طريق المجـد والشهرة تتراخى رويدا رويدا ، وهو فى أول الأمر لا يحس تراخيها ، وأخذت تنتابه فترات قصيرة ، ثم متطاولة من الهمود والسهوم . وبدأ سؤال هامس يهجس فى أعمـاق نفسـه ولا يكاد يتبينه أو يترجمه الى لغة الألفـاظ الصريحة ، سؤال يتردد بين الحين والحين : ثم ماذا ؟ وما جدوى هـذا الجهد وماغناؤه فى النهاية ؟ .. ولكن سرعان ما كان هذا الهمس يختفى فى زحمة الشهرة وضجيج الصيت.

وفى ليلة الأمس كان فى منزل شقيقه يحضر العيد الخـامس لميلاد سمير ، وقد ألبسته أمه حلة جديدة ، ونسقت الدار لاستقبال صديقاتها وأزواجهن وأطفالهن ، وتلألأت الأنوار والأزهار ، واستخفها النشاط والمرح ، فكانت كالفراشة الجميلة تسير وكأنها تقفز وتحدث والضحكات المرحة تطل من ثنايا الحديث . . . أما سمير ورفاقه الصغار فكانوا فى نشوة نشيطة يجرون ويقفزون ، ويجتمعون ويتفرقون . . كما تجمع الأزهار فى الطاقة ثم تفرقها ، لتجمعها فى نظام جديد .

وبينما كانت هذه المناظر تتراءى لعينيه كان ذهنه شاردا . كان يستجمع خواطر غامضة رهيبة ، وحينما انتهت الحفلة وهم بالخروج حمل سميرا بين يديه فى تأثر عنيف ، وقبله بحرارة . وهنا فاجأته دمعة لم يتهيأ لاستقبالها ، فأسرع ينزله من بين يديه ويستأذن فى الخروج ، بينما سمير يناديه : " بابا عبده . مروح ليه " أجل مروح لإيه ؟ ماذا هنالك يأوى إليه ؟

ترى يقصد الطفل هذا الذى يدور فى خاطره الآن ، ويعنى ما يقول ؟ !

وفى الطريق هجمت عليه فكرة واضحة جدا فى هذه المرة ... إنه الآن فى القمة ، ولكن أمجاد الأرض كلها لا تساوى هذه الزهرة الحلوة ، وهتافات الجماهير جميعا لا تساوى هذه اللثغة المحبوبة !

تنفس الصبح ونفذت أشعة الشمس إلى حجرة عبد المنعم ففتح عينيه وجال ببصره فى الحجرة كالذى يصحو من حلم غريب ... ووقع نظره على ملابسه المبعثرة فتذكر وقهقه ضاحكا ، ونهض نشيطا ، وهو يستعيد خيالات الأمس العجيبة .

واستخفه مرح مفاجئ فأخذ يغنى وهو ذاهب إلى الحمام ، وكأنه يرقص أو يقفز فى خطواته . ترى كانت صحوة المصباح أو رقصة المذهول ؟

وحينما وقف أمام المرآة يمشط شعره ، وجم بغتة كالذى يجفل من مشهد غريب . . . ، لقد راعته الشعرات البيض ، فقد وخط رأسه المشيب .

إنه فى الخامسة والأربعين !

* * *

وحينما أتم هندامه وخرج من الدار ، لم يفته أن يرمق شيش النافذة المقابلة فى الطريق . لقد لبثت تلك الفتاة الفقيرة الشوهاء تنتظره وراء الشيش وتحركه حركات مقصودة كلما خرج فى الصباح طوال هذه الأعوام ؛ فلم يقابل هذه الحركة بغير الابتسامة المشفقة فى بعض الأحيان ، والإهمال التام فى معظم الأحيان .

أما اليوم : فليتها تكون هناك وراء الشيش . . . إنه يتطلع اليه — أول مرة — باهتمام شديد ؟

حلوان سيد قطب

مجلة الشؤون الاجتماعية

تختتم عامها الثانى

بهذا العدد تختتم المجلة عامها الثانى ، وهى مطمئنة الضمير إلى أنها جاهدت مخلصة للقيام بمهمتها ، وأداء رسالتها فى محاولة الإصلاح الاجتماعى .

وهى بهذه المناسبة تشكر لحضرات من ساهموا فى تحريرها ، فأعانوها على أداء واجبها . وترجو أن تجد فى أعوامها القادمة ما لقيه من إقبال ومعونة وتشجيع .

المحرر